الدلالة الإيحائية لظاهرة توالي الحركات في القرآن الكريم

هدى صيهود زرزور

ملخص البحث

يرومُ هذا البحث الكشف عن جانبٍ من جوانب الإعجاز القرآني في الكلمة وما يتعلق معها، ويسلط الضوء على ظاهرة لغوية تمثل جوهر بناء الكلمة العربية، وهي ظاهرة (توالي الحركات الإعرابية) في القرآن الكريم، حيث رَصدَ البحث في مهادِهِ النظري طبيعة هذه الحركات، ومعاييرها الفيزيائية والسياقية، والنطقية، وأهميتها الدلالية، إذ لا يمكن لأيّة بنية أن تتشكل من غير تواشجٍ وثيقٍ بين صوامتها وصوائتها، وأثبت البحث في جانبهِ التطبيقي بالمنهج التحليلي لآيات القرآن الكريم في مواضع متعددة، أن ظاهرة توالي الحركات المتجانسة في القرآن الكريم، إعجاز لغوي بلاغي، انطلاقاً من قاعدة ((كراهة توالي أربع متحركات لا ساكن بينها))، وهي إحدى أهم قواعد اللغة الأساسية.وأكدّ البحث في نتائجه الدقيقة، أنَّ هذهِ المتواليات المتحركة ذات دلالات إيحائية، وإحكام دقيق وصياغة عجيبة في مفردات القرآن وتراكيبه وسوره المتعددة. وقد اقتضت منهجية البحث إثارة أسئلة متعددة؛ تتحققُ إجابتها أثناء التنظير والتحليل؛ ليثبت أولاً دقة القرآن الكريم وبلاغته العجيبة، ولتضع الباحثة اليد الراسخة للانطلاق في إثبات ذلك، وهذا غيضٌ من فيضِ سنا القرآن الكريم.

The Semantic Inspiration of the Successive Movements Phenomenon in the Holy Qur'an

Huda Sayhood Zarzor

Abstract

This research aims at uncovering some aspect of qur'anic miraculousness in the word and what related to it. It highlights a linguistic phenomenon that represents the essence of the construction of Arabic word, the phenomenon of the sequential movements. In its theoretical background, the research focuses on the nature of these movements and its contextual, physical , verbal and semantic importance criteria. No structure can be formed without a close juxtaposition between its solidity and its validity. The research proves by its analytical application method on the verses of the Holy Quran in several places that the phenomenon of homogenous movements in the Holy Quran is miraculous The research ends up with the following results: mobile sequences have semantic connotations , precise and exquisite construction in its wording , structures and surahs. The methodology of the research necessitated the raising of multiple questions; the answers are fulfilled during the analysis to prove the accuracy of the Holy Quran and its strange dialect, and to put the researcher in a position to prove that.

الدلالة الإيحائية

لظاهرة توالي الحركات في القرآن الكريم

د .محمد خضير الحمداني

م.م هدى صيهود زرزور

المقدمة

الحمدُّ لله الذي شرّف الإنسان بمعجزة القرآن الكبرى، ليبقى خالداً على مدى الأزمان، وصلى الله وسلم على محمدٍ المؤيد بأعظم الدلائل والبينات، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

أما بعد:

فشأن القرآن دائماً، كُلّ حرفٍ فيه لهُ حكمة لا يعلمها إلاّ الله تعالى، وله فلسفات مهما أبحرنا في محيطها فإننا لا نأتي على شيءٍ منها إلاّ على ما يروي ظمأ القلوب، وكثيرةٌ تلك الدراسات التي عانقت المصحف، والأعمال العلمية التي أنجزها علماءُ العربية عبر التاريخ الطويل تتلمسُ أسرار القرآن وتصغي لعطاءات هذا الكلام الرباني العظيم، وما زالت بكراً كأن لم يمسسها قلمُ باحث، ولم يمتد إليها فكرُ بشر.

ومن هنا تأتي دراستنا لجانب من جوانب هذا العطاء، لتتفرد بالحركات فيه، حيثُ تعدّ هذه الدراسة من أشدّ الدراسات تعقيداً؛ فالحركات أساس الإعراب، والإعرابُ أبرز سمات النحو؛ لذلك اختلف اللغويون في تسمية هذه الطائفة من الأصوات اختلافاً كبيراً، واصطلح عليها في الإنكليزية (Vowels)، ثم شاع بعدها في العلوم اللغوية العربية للدلالة على أصوات المدِّ القصيرة فحسب، وهذا الاختلاف في المفاهيم دفعنا للالتزام بمصطلح (الحركة)؛ لاستقراره وأسبقيته في الظهور.

يكشف تتبعنا في متون المؤلفات العربية، أن قضية (الحركات) لم تنلَ اهتماماً واضحاً كالصوامت، ولم يظهر هذا المصطلح بوصفه مصطلحاً صوتياً في دراسات مفصلة مستقلة؛ بل جاء عرضاً ضمن الحديث عن الجوانب النحوية فلم يُعط القيمة التي تُناسب أهميته في اللغة، وانطلاقاً من هذه النظرة أخذنا على عاتقنا تتبع هذه القضية،

واستقصاء جوانبها النظرية والتطبيقية، وحصرها في ميدان القرآن الكريم؛ لالتفاتنا إلى مسألة توالي الحركات الإعرابية (القصيرة) في مواضع متفرقة، وضمن نطاق مفردات وتراكيب وآياتٍ متعددة؛ مما لا يشعرك بثقلٍ سمعي أو تنافر صوتي، فقد كرهت العرب توالي أربع متحركات لا ساكن بينها، وكرهت توالي الأمثال، وغير ذلك من الظواهر، التي نجد أن القرآن الكريم وظفّها بأساليب إعجازية تحدّت بلغاء العرب وفصحاءهم، وأثبت البحث مدى التناسب والانسجام بين تلك الحركات متواليةً وبين دلالاتها الإيحائية ومراعاتها للمقام، وتشكيل صور فنية ومشاهد حية تجذبك إلى عالم تتلمّسه بوضوحٍ مع تدفق الحركات وتواليها الصوتي وإصابتها الموقع بلا خللٍ أو غرابةٍ، في نظام خاص ومنهج علائقي مترابط، يعبر بك إلى حدود الخيال.

أولاً - مفهوم التوالي لغةً واصطلاحاً:

أجمعت معجمات اللغة العربية على ارتباط مادة (ولي) بدلالة التتابع والتعاقب المباشر، على الرغم من تعدد معانيها، وإلى ذلك أشار الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)[١]، فـ ((الواو واللام والياء أصلٌ صحيح يدلُّ على قُرْبٍ، ومن ذلك: الوَلِّيُ: القُرْبُ، يُقال: تباعدَ بعدَ وَلْيٍ، أي: قُرْب، وجلست مما يَليني؛ أي: يُقاربني... ومن الباب: المَوْلى؛ المُعْتِق والمُعْتَقُ، والصَّاحبُ والحَليفُ، وآبنُ العمِّ، والناصرُ، والجارُ، وكُلّ من وَلِيَ أمرَ آخرٍ، فهو وليُّهُ، وقال الأصمعيُّ: معناه: قارَبَهُ، والبابُ كلهُ راجعٌ إلى القُربِ))[٢]، وهذه المادة من المواد التي تعددت معانيها، وكثرت مدلولاتها، وتكرر ورودها بصيغ وتصريفات متنوعة كثيرة في القرآن الكريم، وكلُّها تُحيل على معنى التتابع والقُربِ والمولاة في القصد والاتجاه، وتوالي مجريات الأحداثِ وتلاحقها بحيث تقتربُ

(١) ينظر: كتابُ العين: ٤/ ٤٠٠.
(٢) مقاييس اللغة: ٦/ ١٤١-١٤٢.

اقتراباً ملحوظاً لا يُفصل بينها، ويُقال: والى بين الأمرين؛ أي: تابع بينهما، والمولاة: التتابع في الفعل، كالموالاة في الوضوء؛ أي تتابعه.[1]

وجاء في التنزيل أن (الوليّ) اسمٌ من أسماء الله، قال تعالى: **{أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ}** [الشورى: ٩]، وقوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}** [الشورى: ٢٨]، وبمعنى: الناصر؛ أو المُتولِّي لأمور الخلق والقائم بها والمتصرِّف فيها[2]؛ وقوله تعالى: **{فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً}** [النساء: ٩٢]، بمعنى التتابع.

أما اصطلاحاً: فقد ذكر الباحثون تعريفاً عاماً للتوالي، وبعضهم ذكر تعريفاً خاصاً يتناسبُ مع موضوعه، فأما التعريفُ العام فيُراد به[3]:

١- متابعة فعل يفعل.

٢- أن يحصل شيئان فأكثر، حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما.

أما المفهوم الخاص للتوالي - في بحثنا - فيرتبط بالحركات تحديداً، حيث عدّوه ظاهرةً صوتية يحدثُ فيها الانسجام بين الحركات المتباينة أو المتشابهة في الكلمة أو التركيب، نتيجة تأثير إحدى الحركات بالحركة المجاورة لها[4]، مُحدثةً إيقاعاً صوتياً تناغمياً منسجماً، لا يشعر معهُ السامع بثقلٍ أو تنافرٍ سمعي مع سهولةٍ واقتصاد في الجهد الفعلي عند الكلام، وقد برهنت الدراسات الحديثة على أن الناطق حين يقتصد في الجهد العضلي يميل بلا شعور أو تعمدٍ إلى تحقيق الانسجام بين حركات الكلمات مع وضوحِ وتمام

(١) ينظر: المعجم القرآني، دراسة معجمية لأصول ألفاظ القرآن الكريم: مج٣/ ٧٨٩.
(٢) ينظر: المصدر نفسه.
(٣) ينظر: بحوث ودراسات في ترثنا اللغوي والنحوي: ٤٥.
(٤) ينظر: المصدر نفسه.

الدلالة السياقية، وللتوالي الحركي درجاتٌ بعضها أيسرُ من بعض، فتوالي حركات متباينة السهلُ في السمع من الحركات المتفقة المتشابهة إن توالت تباعاً.[1]

ثانياً- مفهوم الحركة لغةً واصطلاحاً:

يكشف التتبع الدقيق لمفهوم (الحَركة) في معجمات اللغة العربية عن دورانهِ على القلقلةِ والاضطراب؛ فهو مفهومٌ مخالفٌ للسكون، يُقال: ((حَرُكَ الشيء يَحْرُكَ حَرَكةً وَحَرْكاً، وحَرَّكَةُ فَتَحرَّك))[2]، يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): ((الحاء والراء والكاف أصلٌ واحداً، ومن الباب الحاركان، وهما ملتقى الكتفين؛ لأنهما لا يزالان يتحركان))[3]، ولا تكونُ إلاَّ مع الأجسَام؛ فهي انتقالُ الجِسم من مكان إلى مكان[4]، وجاء في المعجم الوسيط أنَّ ((الحَركَةَ: كيفية عارضة للصوتِ، وهي: الضمُّ والفتحُ، ويُقابلها السكون))[5]، وقد أورد أصحابُ المعجمات تصريفات مادة (حَرَك) وتقلباتها المتعددة، مؤكدين ذلك بالشواهد والأمثلة الوافية، وتظهر جليةً دلالة هذا المفهوم في قولهِ تعالى: {**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**} [القيامة:١٦]، في حين عدَّ الباحثون هذه المادة من المفردات الفذّة في القرآن الكريم[6]، ولو دققنا النظر ملياً في ورود هذه المفردة في تضاعيف الكتب؛ لوجدنا أنها تحملُ دلالة التقليب وعدم الثبات، وهو ضدّ السكون، ففي الحديث عن أبي هريرة (t) قال: ((آمنتُ بمحرِّفِ القلوب، قال الفرّاء: المحرِّف: المُزيل، وفي روايةٍ: بمُحرِّكِ القلوب، أي المُقلِّب، وقال العباس والمُحرِّك أجود؛ لأنَّ السُنة تؤيده، يا مُقلب

(١) ينظر: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني: ١٢٣.
(٢) كتاب العين: ١/ ٣٠٧، ولسان العرب: مج١٠/ ٤١٠ (حَرّك).
(٣) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٤٥.
(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١/ ١١٤.
(٥) المعجم الوسيط / ١/ ١٧٥.
(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٥١.

القلوب))[1].

وباستقراء مذاهب العلماء في إثبات تعريف شامل جامعٍ للفظة (الحركة) في الاصطلاح، نجد أنَّ ما قررته اللغة يقتربُ في المدلول من المفهومِ الاصطلاحي، ويتفق مع ما ذهب إليه العلماء من أن (الحَرَكة) ((صوتٌ يحدثُ عند إرسال النفس، وهو الصوت الذي يحصلُ التلفُّظ بهِ بعد التلفظ بالحرف))[2]، وعلَّلوا ذلك بقولهم: ((وإنما سُمّيت هذه الأصول الناقصة حَركات؛ لأنها تُقلق الحرف الذي تقترنُ بهِ، وتجتذبهُ نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحةُ تجتذبُ الحرفَ نحو الألف، والكسرةُ تجتذبهُ نحو الياء، والضَّمةُ تجتذبهُ نحو الواو))[3]، ومع ذكر لفظ (الحركات)؛ إلاَّ أنه لم يُقرر صراحةً في نصوصهم الواردة؛ بل كانوا أقربَ إلى التوصيفِ منهُ إلى التسمية.

لقد فتحَ سيبويه (ت ١٨٠هـ) الباب لمن جاءَ بعده، بذكرهِ مصطلح الحركة عند المعالجات النحوية والصرفية، فأوجز الحديث عنها بنصين كررَ فيهما مصطلح (مجارٍ مجاري) أكثر من مرةٍ[4]، وكان موضعُ الإيجاز بذكرها ينصُّ على ارتباط مفهوم (التوالي) بـ(الحركات)، الذي يجعل الكلام أكثر جمالاً وحُسناً، فـ((كلّما توالت الحركات أكثر كان الإدغام احسن))[5]، وقد سبَقَهُ الخليل (ت ١٧٥هـ) في اعتماد مفهوم الحركةِ للدلالة

(١) تاج العروس: ٧/ ١٩، مادة (حَرَكَ).
(٢) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ١/ ٥٤.
(٣) سرُّ صناعة الإعراب: ١/ ٣٠.
(٤) ((هذا بابُ مجاري أواخر الكلم في العربية وهي تجري على ثمانية مجار على النصب والجر والرفع والجزم والفتح والضمّ والوقف، وهذه المجاري الثمانية يجمعهنَّ في اللفظ أربعة أضرب: فالنصب والفتح في اللفظ ضربٌ واحد، والجر والكسر فيه ضربٌ واحدٌ، وكذا الرفع والضمّ، والجزم والوقف))، الكتاب: ١/ ١٣.
(٥) المصدر نفسه: ٤/ ٤٣٧.

على حركة البنية، وسَارَ على نهجهما الفرَّاء (ت ٢٠٧هـ) والمُبرِّد (ت ٢٨٥هـ)[١]، أما الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) فقد جَعَلَ دلالة الحركات على الإعراب عنواناً لأحدِ أبوابه، وهو: ((بابُ القولِ في الإعراب، أحركةً أم حرف))[٢]، والذي يلفت الانتباه في هذا الموضع أن أحد الدارسين المحدثين نسب فضل الريادة في صياغة واستثمار مصطلح (الحركة) لابن جني (ت ٣٩٢هـ)، مؤكداً عدم وروده عند من سبقه بالمفهوم الصوتي الدقيق والمفصَّل، ((ويبقى مصطلح الحركة بالمفهوم الصوتي غير محدد البداية إلى أن نجد ابن جني يشير إليهِ في كتابيه: الخصائص، وسرُّ صناعة الإعراب))[٣]، وفي هذا القول ترجيحٌ واضحٌ لأولوية ابن جني في وضع المصطلح واستقرارهِ، مع عدم إغفال مسألةٍ في غاية الأهمية، ألا وهي التزام ابن جني بالأمانة العلمية وإظهاره لجهود السابقين، وعدم استئثارهِ بتوظيف التسمية ونسبتها لنفسهِ.

ولا يخفى على الباحث الحصيف جهد ابن جني في تعامله مع هذا المصطلح، ومقدرتهِ الإبداعية على إثباتِ أصل الحركةِ ونشأتها ومواضعها من الحروفِ، وأثرها الدلالي في توجيه المعنى، بوصفها ((أبعاضُ لهذهِ الحروف، فإنَّك متى أشبعتَ واحداً منهنَّ حَدَث بعدها الحرف الذي هي بعضه))[٤]، فثَبتَ لديهِ استحالة أسبقية الحركة على الحرف الذي هو من جنسها، ونفى أن تكون الحركة في المرتبة قبل الحرف؛ ((وذلك لأنَّ الحرف كالمحل للحركةِ، وهي كالعرضِ فيه؛ فهي لذلك مُحتاجةٌ إليه، ولا يجوز وجودها قبل وجودهِ))[٥]، وبذلك تشكَّلُ الحركَة صوتاً لغوياً أساسياً يُعتد به في صياغةِ الألفاظِ

(١) ينظر: معاني القرآن (الفرّاء): ٢/ ١٣، والمقتضب: ١/ ٩٧.
(٢) الإيضاح في علل النحو: ٧٢، نقل السيوطي هذا الباب في الأشباه والنظائر: ١/ ٨٠.
(٣) ينظر: الحركات في اللغة العربية، دراسة في التشكيل الصوتي: ٨-٩.
(٤) سرُّ صناعة الإعراب: ١/ ٢٠.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ٤٣.

والجُمل والتراكيب؛ للتعبير عن دلالات مختلفة.

وقد استقر مصطلح (الحركة) بعد ابن جني، وشاعت التسمية عند الكثير للدلالة على آلة الإعراب؛ ((لأن الاختلاف يحصلُ بها ولو لم تكن الحركة إعراباً، لوجب أن لا يُقال: حركاتُ الإعراب، إذ الشيء لا يضاف إلى نفسه، ألا ترى أنك لو قلت: حركات الحركات، أو حركات الضمّة والفتحة والكسرة كان مُحالاً))[1]، وانصرفوا إلى التفريق بين حركات الإعراب وحركات البناء، والبحثِ في ولادة كُلّ حركةٍ ومناسبتها لأقسام الكلمة ((وليس كل حركة إعراباً، كما أنّهُ ليس كُلّ الكلام معرباً))[2].

ويرى أغلبُ النحويين بالاتفاق أن الحركات دلائل المعاني؛ إنما وضعها العربُ ليتسعوا في كلامهم، وليقدموا متى أرادوا التقديم، وهذا مذهبهم، الذي عابهُ بعضُ العلماءِ وأطلق عليه اعتلالاً[3]؛ ((فالعربُ إنّما أعربت كلامَها؛ لأن الاسم في حال الوقف يلزمهُ السكون، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً، لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، فكانوا يبطئون عند الادراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك، جعلناه مُعاقباً للإسكان ليعتدل الكلام)[4]، وهذا تأكيدٌ على أنَّ الإعراب دليلٌ على المعاني وهو الرأي الراجح الداحض للمخالفين الذين يعتقدون أن الغاية هي الخفة عند إدراج الكلام[5]، ولو كان ذلك ما التزمته العربية هذا الالتزام، وخيرُ دليل على ذلك أننا لو قرأنا قوله تعالى: **{أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}** [التوبة: ٣] بالجر؛ لفسدَ المعنى واختل ميزان النحو، وقد أكدَّ الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) أنَّ حادثة كهذهِ وأمثالها أدتْ إلى وضعِ قواعدِ

(١) **المقتصد في شرح الإيضاح: ١/ ٩٩.**
(٢) **ينظر: الإيضاح في علل النحو: ٩١.**
(٣) ينظر: الإيضاح في علل النحو: ٦٩.
(٤) **المصدر نفسه: ٦٩-٧٠، وينظر: معاني النحو: ١/ ٢٤-٢٥.**
(٥) **ينظر: أسرار العربية (إبراهيم أنيس): ١٥٨.**

النحوِ[1].

هذا كلام العلماء القدامى، وإذا عرّجنا على المحدثين وجدنا محاولات متعددة تتراوحُ بين التشبثُ بالمفاهيم القديمة، والسعي لتطويرها، وبين التجديد في وضع مقابلاتٍ أو بدائل تأخذ على عاتقها تصحيح المسارات والأخذ بمصطلحات تواكب العصر، مع التأكيد على أن تسمية (الحركات) بهذا المصطلح هو أقدمُ تسمية لها، فالحركات الحسّية التي تصدر من الفم أو الشفتين والتي رصدها أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٧ هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي، هي مبادرة حقيقية لوضع نقاط الشكل أو ما يعرف بعلاماتِ ضبط الكلام، لمعرفة صحة نطقه، وإمكانية تلاوة القرآن الكريم على الوجه الأمثل، وهذه العلامات هي رموز الحركات التي ((لا تعدو في نشأتها أن تكون روابط بين الكلمات... ونظامُ المقاطع في نطقِ العربيِّ يلزم طريقاً خاصاً، يتطلب تلك الروابط ضرورية صوتية))[2].

ويظهر الاختلاف بين القدماء والمحدثين في تعدد المصطلحات الصوتية، فكان القاسم المشترك بينهم، أنَّ الحركات أبعاضُ أصوات المدِّ واللين[3]، ويكاد يجمع الكُلّ على تحديد الكمية حيث تتفاوت فيها، فيغلب عليها أن تكون الضمة أطول الحركات، تليها الفتحة ثم الكسرة، وهذا التفاوت يمكن تحديده في الحركات الطويلة؛ لأن الفرق في كميتها أظهرُ من القصيرة، وهو تفاوتٌ غير ثابت وقطعي.[4]

يؤكد البحث أن تعريف الحركة تعريفاً جامعاً مستقلاً، أمرٌ لا نكادُ نعثر عليه في متون الدراسات الصوتية، فقد كان وما يزال موضعاً خصباً لكثير من الباحثين، فهو متنوعٌ

(١) ينظر الكشاف: ٢/ ٢٧.
(٢) دلالة الألفاظ: ٢٠٧.
(٣) ينظر: العربية الفصحى، دراسة في البناء اللغوي: ٢٤.
(٤) ينظر: الأصوات العربية (إبراهيم أنيس): ٢٩.

بتنوع نطق الحركةِ الواحدة، وتطور النظريات والأجهزة التي تضبطها، فقد أطلق بعضهم مصطلح (الليّن)، قائلاً: ((وأصواتُ الليّن في اللغة العربية هي ما أصطلح القدماء على تسميته بالحركات من فتحة وكسرة وضمة))[1] في حين اعترض آخرون على التسمية ووصفوها بأنها تجاوزٌ علميّ غير مقبول، ومنهم من رفض مصطلح (الحركة) مقترحاً بدائل أدق في الدراسات الصوتية، معللاً ذلك بأن ((الحركة عند القدماء من العرب عناصر ناقصة؛ لابدَّ أن تعتمد على حرفٍ صحيح أو كالصحيح (الواو والياء)، ومن ثم فالحركة في نظر هؤلاء ليس لها وجود مستقل))[2]، ومع وجود التداخل المفاهيمي، على اعتبار أن الحركة جزء من حروف المدِّ، مما يؤدي للقضاء على صلاحية المصطلحات حتى لو رُجحت بدائل (المصوِّت) أو (الصامت)، ومسوِّغ الرفض عند هؤلاء هو فرضية مؤادها وجوب أن يكون المصطلح تعبيراً عن تاريخه، وهذا الأمر فيه نظر؛ لأنَّ مسألة إثبات مفهوم (الحركة) مصطلحاً شمولياً يقتضي استيفاء المضامين الدّالة مع ضرورة الإيمان بتطور بناء المصطلحات حديثاً في التعبير عن الجوانب الصوتية والوظيفية، التي تتُخذ أساساً لبناء معيار مطّرد لتمييز الحركات من الصوامت[3]؛ لذلك تعدُّ دراسة (الحركات) من أشدّ جوانب الدراسات الصوتية وأكثرها تعقيداً، وهي موضع أخذ ورد ومناقشات بين العلماء والباحثين.

ثالثاً- أنواع الحركات وخصائصها الوظيفية:

لم تحظَ قضية (حركات) اللغة قديماً بدراساتٍ عميقةٍ، تُظهر مخارجها الدقيقة وصفاتها المميزة، ووظائفها في التعبير، ولم يُعنَ بها علماء العربية القدامى عنايةً لائقة، فقد عدّوها

(١) المصدر نفسه.
(٢) العربية الفصحى، دراسة في البناء اللغوي: ١٨.
(٣) ينظر: المصوّتات بين القديم والحديث، دراسة صوتية: ٥٠٢.

أشياء عارضة تابعة للحروف (الأصوات الصامتة)، ولم تستقل دراسات قائمة بذاتها تُفسر دقائق مبناها ومعناها، إلى أن جاءت الدراسات الحديثة التي سجلت تفوقاً في بعض الجوانب؛ لتوفر المخابر والأجهزة الحديثة المتطورة التي مكنتهم من عزل الصوت اللغوي وإعادة تركيبه؛ لأن مادة الصوت يجب أن تكون علمية محضّة، ويظهر الاختلاف بين القدماء المحدثين في تعدد المصطلحات الصوتية، ولكُلّ فئةٍ حجّتها في التسمية[1]، وقد آثر بحثنا تسمية (الحركات)؛ لأنه يتوافق ووظيفة هذه الأصوات، فهي التي تمنحُ الصوت حرية الحركة والانتقال، وكاد يجمع الكُلّ على تحديد الكمية، أما عن تحديد مخارجها فنجدُ أن الدراسات القديمة وفقت في قسم منها وأخفقت في قسم آخر[2]، وما زال الدرس الصوتي يُثري الساحة البحثية بالنتاجات والكشوفات الحديثة المتطورة.

يقوم النظام الصوتي في كُلّ لغة على دعامتين أساسيتين:

١- الصّوامت. ٢- المصوّتات.

(الحروف) (الحركات، وأشباهها)

وقد تميزت الثانية بخصائص وصفاتٍ متنوعة، ونظامٍ دقيق يُحدد طرائق نطقها، وسماتها الفسيولوجية والفيزيائية والإدراكية.[3]

ومع أن الحركات (الصوائت) تقوم أساساً على الحروف (الصوامت)، إلاَّ أنها تمثل وحدات (فونيمات) صوتية تمتاز بوضوحها السمعي، وعدم إمكان الابتداء بها في

(١) ورد مصطلح (الحركات) بأسماء لا تتضمن مدلوله بالمفهوم الصوتي الخالص، فقد وصفها الخليل بأنها هوائية لا حيز لها، أما سيبويه فأطلق عليها حروف أتسع مخرجها وسماها بعضهم (الصوائب)، وغيرها من المصطلحات، ينظر: الكتاب: ٤/ ٤٣٥ - ٤٣٦، المصوتات بين القديم والحديث (دراسة صوتية)، بحث: أ. الحاج علي هوارية، مجلة مجمع اللغة العربية، ٧٤، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، ص٤٨٦.

(٢) ينظر: علم اللغة العام: ١٣٢.

(٣) ينظر: الحركات بين المعايير النظرية والخصائص النطقية: ١٣٢.

العربية[1]، وكثرة دورانها في الكلام، ونطقها الحرّ ومساحة مخارجها الواسعة، فالجهد المبذول حين النطق بها أقل من النطق بالصوامت، ((فهي روح الكلام الذي تمنحه الحيوية وتبث فيه النشاط، وهي وسيلة طيّعة في يدِّ المتكلم يلوّن بها كلامه كيفما شاء، وينوع أداءٍ وآخر))[2] وتنقسم الحركات على قسمين:

١- حركات (صوائت) قصيرة:	الفتحة	الضمة	الكسرة
٢- حركات (صوائت) طويلة: وهي (أصواتُ المدِّ واللين)	ألف المدّ	واو المدّ	ياء المدّ

ولِكُلِّ حركةٍ صوتُ مدٍّ يجانسهُ، وهو جزءٌ منه:

الفتحة	الضمة	الكسرة
-	-	-
الألف	الواو	الياء

أطلق علماء اللغة المعاصرون مصطلح (الحركات القصيرة) على الحركات (الفتحة، الضمة، الكسرة)، و(الحركات الطويلة) على أصوات المدّ، مما يؤكد أن عملية إنتاج الحركات تعتمد معياراً ثابتاً لا يمكن تجاوزه أو إغفاله عند تحديد مساحتها، وهو شكل ووضعية اللسان، فقد أُجريت دراسات عديدة فصَّلت نُطق تلك الحركات وأحوال اللسان ومحاور وضعهِ في اللغات الإنسانية، استطعنا من خلالها أن نقف على صعيد بنيتها التشكيلية أو حالتها الإعرابية – الفتح والضمّ والكسر – وكذلك السكون،

(١) ينظر: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: ٣٧١.
(٢) المصوّتات بين القديم والحديث: ٤٨٨.

وتحديد صفاتها المميزة وملامحها المؤثرة في الكلمة، أوجزها الباحثون بالآتي[1]:

١- أثناء النطق بالحركات يمرُّ الهواءُ حراً طليقاً عبر الفم بلا عائقٍ أو مانعٍ، فلا يُحدث احتكاكاً مسموعاً.

٢- تعدُّ أقوى الأصوات وضوحاً سمعياً (most sonorious).

٣- تتخذُ من الخفّة والثقل والسكون معياراً لها.

٤- الخطأ في (الصوائت) أوضح منه في الصوامت، يمكن تمييزه من مسافة أبعد.

٥- غالباً ما تكون مجهورة، حيث يحمل الصوت المجهور طاقة أعلى بكثير مما عليه الصوت المعوِّق.

٦- الفتحة هي أول الحركات وأوضحها، تليها في الترتيب النطقي الكسرة ثم الضمّة.

٧- أخفُّ الحركات نطقاً الفتحة فهي تُضارع السكون، ثم الكسرة، فالضمّة.

ويمكننا توضيح الخصائص بالجدول الآتي، الموضّح طبيعة الاختلاف[2]:

الحركات	موضع نطقها	درجة الانفتاح بالنسبة للفم	صفاتها بالنسبة للشفتين
الفتحة	وسطية	مُنفتحة	مُنفرجة
الكسرة	أمامية	مُنغلقة	مُنفرجة
الضمّة	خلفية	مُنغلقة	مستديرة

رابعاً- الأثر الأسلوبي لخفّةِ الحركات وثقلِّها في البناء الصوتي:

للحركة الإعرابية دلالات واسعة ومتعددة تنبع من تدرّجها في الخفة والثقل والقوة والضعف؛ لذلك تقتضي تنظيماً خاصاً في مبنى الجملة، يقوم على نمطٍ من العلاقات

(١) ينظر: علم اللغة العام: ٢١٧، والدلالة الصوتية في القرآن الكريم: ٣٧٤.
(٢) التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: ٤٧.

الترابطية بين صورة اللفظ ودلالتهِ النغمية واقتضاء كل منها للتناسب الدلالي، فالمفردة الواحدة يمكن نطقها بأكثر من نمطٍ، فتتغير حينئذٍ دلالاتها مع الحفاظ على بنيتها، وعلى هذا الأساس جَعَلَ العلماء (الضمّة) التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى، والفتحة الخفيفة للمعاني الخفيفة، أما الكسرة فهي الحركة التي بين القوي والخفيف فتكون للدلالة على المعاني المتوسطة[1]، وهذا ((الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة، فإذا توالت حركتان خفيفتان في كلمةٍ واحدة لم تُستثقل، وبخلاف ذلك الحركة الثقيلة، ومن أجل ذلك استُثقلت الضمة على الواو، والكسرة على الياء؛ لأن الضمة والكسرة من جنس حرفيهما، فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان))[2]، لذلك فقد وظف القرآن الكريم هذا الانتقال بين الثقل والخفّة في مستويات السياق المتعددة، من غير أن يُشعر المتلقي بكراهةٍ أو ثقلٍ، وهذا الانتقال المتدرج هو أحد أسباب إطلاق تسمية الحركات في نطاق نسقي بديعٍ متوازن، ((واعلم أنه قد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ ولم يحدث فيها ثقل))[3]، كقوله تعالى: {**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ**} [الانعام:٦١]. وكقوله تعالى: {**هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ**} [الواقعة:٥٦]، فحركة الضمّ في هذه الألفاظ متوالية بلا خلل في السمع أو تكلف في الصياغة.

ولو تأملنا التعبير القرآني في قولهِ {**بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا**}، وجدنا الإعجاز الأسلوبي في توظيف مواقعِ الحروف وجريانِ حركاتها متواليةً، كحركةِ (الفتح) المتوالية (٦) ست مرات، مع الفصل بالمدِّ ابتداءً من حرف (الشين) إلى (تماروا)، وقد استند القدماء إلى

(١) ينظر: التفسير القيم: ٢٠٦.
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/ ١٩٣ - ١٩٤.
(٣)

صفات الحركات في التكلم عن دلالاتها ((والمناسبة الحقيقية معتبرة بين اللفظ والمعنى: طولاً وقصراً وخفةً.. وحركةً وسكوناً))[1]، حيث يُشعرك تتابع الفتحات مع الألف الطويلة في السياق القرآني المتضمن مشهداً من مشاهد القيامة، وفي ختامهِ مشهداً آخر، وبين المشهدين عرضٌ سريعٌ لمصارع قوم نوحٍ، وعادٍ وثمود، وقوم لوطٍ، وفرعون وملئهِ، ففي الآية (٣٦) السادسة والثلاثين، تصريحٌ بإنذار لوط قومه عاقبةَ المُنكر الشاذ، فتماروا وشكّوا وجادلوا نبيهم بفجورٍ واستهتارٍ ومراودته صباحاً عن ضيفهِ – من الملائكة – وقد حسبوهم غلماناً، وساروا يريدون انتهاك حرمة الله في ضيفهِ الذي حذرهم عاقبة هذا الشذوذ المريض، عندئذٍ تدخلت القدرة الإلهية (فطمسنا أعينهم)، ((وكان طمسُ العيون في المساء... في انتظار الصباح الذي قدّره الله لأخذهم جميعاً))[2]؛ وبما أن حركة (الفتح) مع (الألف) شكلّت صوتين متسعين في طول البعد الزمني، والاستمرارية والامتداد لمستويات أطول وأبعد؛ لذلك ناسب التعبير القرآني هذه الحركة مع الاتِّساع الزمني الذي جرت فيه الأحداث بالتفصيل فيما وقع بين طرفي القصة القرآنية، واستكمالاً لموضعها الآخر: **{قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ}** [هود: ٨١]، مؤكداً ذكر (انطماس العيون).

ويظهر التناسب الحركي في المتواليات اللفظية **{وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ}** [القمر: ٤١]، المتكررة إحدى عشرة مرة، في فواصل الآيات (٥ – ١٦ – ١٨ – ٢١ – ٢٣– ٣٠ – ٣٣ – ٣٦ – ٣٧ – ٣٩ – ٤١) بتوالي الضمّ على حرفي (النون والذال)؛ دلالة على الجمع في صيغة (فُعُل) ورتبتها في الجمال، إضافةً إلى مناسبة قوة حركة الضمِّ مع

(١) بدائع الفوائد: ج١/ ١٨٩.
(٢) في ظلال القرآن: مج٦٦، ج٢٦-٣٠/ ٣٤٣٤.

شدّة الإنذار وارتفاع أقصى درجاته ((فقد كان كما صورهُ القرآن، عذاباً مُدمراً جباراً))[1]، مُكرراً بعد عرضِ كُلِّ مشهدٍ يعقبه التعبير المألوف **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}** [القمر: ١٧] [١٧ - ٢٢ - ٣٢ - ٤٠]، ونبه ابن القيم إلى أن الضمّ حركةٌ قوية مع الجمع مما يوازي ما في معنى (النُذُر) من جمعِ الشدّة في العقاب، والقوة في الوعيد؛ فكأنهم دلوا السامع بلفظهِ وحركتهِ وقوتهِ على معناه[2].

أكّد الرافعي أن توالي الضمة على النون والذال معاً يُشكل ثقلاً، فضلاً عن جَسْأة هذا الحرف ونُبُوِّه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه موضع الثقل؛ لكنه جاء في القرآن على الضد، وانتفى من طبيعتهِ.

خامساً - القيمة الدلالية للحركة الإعرابية:

الإعرابُ خصيصة من خصائص اللغة العربية، فهي لغةٌ إعرابية، وهو أبرز سماتِ النحو، فقد وصفه العلماء بأنه ((الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبهِ يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد))[3]، وعلى هذا الوصف فدلالة الإعراب البيان والإيضاح[4]، أو بمعنى أدق ((هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ))[5]، فقد جاء في (أسرار العربية) تفصيل أوجه الإعراب الثلاثة وهي[6]:

(١) في ظلال القرآن: مج ٦ / ج٢٦ - ٣٠ / ٣٤٣٤.
(٢) ينظر: بدائع الفوائد: ١/ ٢٥٥.
(٣) الصاحبي في فقه اللغة: ٤٣.
(٤) ينظر: شرح المفصّل (ابن يعيش): ١/ ٧٣.
(٥) لسان العرب: ٩/ ١١٤-١١٥، مادة (عَرَبَ).
(٦) أسرار العربية: ١٨-١٩.

١- أن يكون سُمِّي بذلك؛ لأنه (يُبين المعاني)، مأخوذ من قولهم: أعربَ الرجل عن حجته إذا بيّنها، ومنه قوله (r): ((الثَّيبُ تعرِبُ عن نفسها))؛ أي: تبين وتوضح.

٢- أن يكون سُمِّي إعراباً؛ لأنّه تغير يلحق أواخر الكَلِم؛ كقولهم: عربتْ معدةُ الفصيل إذا تغيرت، فإن قيل: العربُ في قولهم: عربت معدةُ الفصيل معناه الفساد، فكيف يكون الإعراب مأخوذاً منه؟ قيل: معنى قولك: أعربتُ الكلام، أي: أزلتُ عرَبُه، وهو فساده، كقولك أعجمتُ الكتاب إذا ازلت عجمته، وأشكيتُ الرجل إذا أزلتُ شكايته.. وهذه الهمزة تسمى همزةُ السلب.

٣- ((أن يكون سُمِّي إعراباً لأنَّ المُعْرِبَ للكلام كأنه يتحببُ إلى السامع بإعرابهِ من قولهم: امرأةٌ عَروبٌ إذا كانت مُتحبِّبة لزوجها))، ودلالتهُ ابتدأت بنظرة النحويين إلى أواخر الأسماء والأفعال وحركاتها الدالة عليها والمبينة معناها سمّوها إعراباً.

لو تأملنا قوله تعالى: **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}** [البلد: ٣]، نجد أن التعبير القرآني لسعتهِ يوحي بالنفي تارةً، والتعجب تارةً، والاستفهام تارةً أُخرى، وهذا لا يُعرف إلاَّ بالإعراب، فهو المميز بين المعاني، وبهِ تُعرف وجوه الكلام وأغراضُ المتكلمين، ومثله ما ورد قياساً على أنه من المأثور اللغوي في القراءات السبع[١]، قوله تعالى: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}** [البقرة: ٣٧]، فالحركات ظاهرة لغوية، ولازمة ضرورية، جيء بها للدلالة على معانٍ إعرابية، والتراكيب تظل غامضة إن لم تضبط حركاتها.[٢]

ولا شك أن للعلامة الإعرابية أثراً واضحاً في بيانِ وتوضيح وظائف الكلمات في التراكيب، وتحديد نسقها الوظيفي، وإزالة اللبس الحاصل والغموض الذي يقع بين

(١) قراءة ابن كثير المقرئ بمكة بنصب (آدمَ) ورفع (كلماتُ)، مع أن قراءة المصحف برفع (آدم) ونصب (كلمات).

(٢) ينظر: إحياء النحو (إبراهيم مصطفى): ٤٨.

عناصرِه، وإضاءة جوانب متعددة تركيبية ودلالية وصوتية يُدركها القارئ الحصيف عند التبحر في مكنونات اللغة العربية وعلومها المختلفة.

إن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعاني؛ لذا ((وجب أن ندرس علامات الإعراب على أنها دوال على معانٍ، ونبحث في أثناء الكلام عمّا تُشير إليه كُلّ علامة منها))[1].

مع يقيننا المُطلق بأن هذه الحركات تختلفُ باختلاف موضع الكلمةِ من الجملة، وعلاقاتها بما معها، ولبيان صحة هذا القول اجمل إبراهيم مصطفى وجهة نظره في العلامات الإعرابية، وأثرها الصوتي في بيان القيمة الدلالية للألفاظ داخل البنية التركيبية، ((فأما الضمة فإنها علمُ الإسناد، أو دليل أن الكلمة المرفوعة يُراد أن يُسند إليها، وأما الكسرة فإنها علم الإضافة، أو إشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها، سواءٌ كان هذا الارتباط بأداة أو بغير أداة، ولا تخرج الضمة ولا الكسرة عن الدلالة على ما أشرنا إليه، أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالّة على شيء بل هي حركة خفيفة مُستحبة عند العرب، ويُراد أن تنتهي بها الكلمة كلَّما أمكن ذلك، فهي بمثابة السكون في لغة العامة))[2]، أما العلاماتُ الفرعية فهي النائبة عن الأصلية في تفصيل متون اللغة وقواعدها.

سادساً- الإعجاز القرآني في كسر قاعدةِ ((كراهة توالي أربع متحركات)):

انطلاقاً من إحدى أهم قواعد الدرس اللغوي العربي، ومرتكزاته البحثية وهي قاعدة كراهة توالي أربع متحركات، في بنية ما بلا ساكن يفصل بينهما في كلمةٍ واحدةٍ. وهذه القاعدة تدور في فلكها مواضع متعددة، مما يُشكل ثقلاً في الأداء النطقي؛ ((إذ

(١) المصدر نفسه: ٤٩

(٢) المصدر نفسه.

مُجرَّد التوالي، مكروهٌ حتى في غير المكروهات أيضاً، وكُلٌّ كثير عدو للطبيعة))[1]، مع رؤية بعض الباحثين أن توالي الحركات المختلفة، أهون من توالي المتماثلة فيما يزيد على الثلاثي المجرد.[2]

فالكلمة العربية مهما اتصلت بسابقٍ، أو لاحقٍ، فإن هذا الاتصال لا يزيد من حيث العِدَّة على (٧) سبعة مقاطع[3]، كقوله تعالى: {أَنُلْزِمُكُمُوهَا}[هود: من الآية ٢٨]، وقوله تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ}[البقرة: من الآية ١٣٧]، ومع ندرة هذه المقاطع في البناء العربي؛ إلاّ أنهم ((قرروا استحالة اجتماع أربعة متحرّكات في الكلمة الواحدة))[4]، ونفيهُ مطلقاً؛ إذ ((ليس في كلامهم اسم على أربعةِ أحرفٍ مُتحركٌ كُلُّهُ))[5]، شريطة أن تكون حروف الكلمة أصلية.

بناءً على هذه القاعدة الثابتة، جاء بحثنا ليؤكد جانباً من جوانب الإعجاز القرآني، وقدرتهِ الأسلوبية على إيراد الألفاظ والتراكيب والمقاطع الصوتية، المفتوحة والمضمومة والمكسورة، متوالية بلا ساكنٍ يفصل بينها، ومخالفته هذه القاعدة؛ لا بل كسرها تماماً، مما لا يشكِّل ثقلاً في الأداء النطقي أو يُشعر القارئ بتنافر أو خلل في الوضوح السمعي (SONORITY)، مع التأكيد على أن إحدى شروط فصاحة الكلمة العربية، أن تأتي خفيفة سهلة النطق، بعيدة عن التكلف والثقل عند سماعها، وهذا مما نجده واضحاً في المتواليات الحركية في القرآن الكريم.

---

(١) شرح شافية بن الحاجب: ٢/ ٢١٥.
(٢) ينظر: المصدر نفسه.
(٣) ينظر: الأصوات اللغوية: ١٥٢، ودراسة الصوت اللغوي: ٣٠٧.
(٤) الأصوات اللغوية: ١٥٣.
(٥) الكتاب: ٤/ ١٩٢.

سابعاً- الأبعادُ الدلالية لتوالي الحركات في التعبير القرآني:

في دراسة الكترونيةٍ حديثة أجراها الباحث أ.د. علي حلمي موسى على ألفاظ القرآن الكريم، باستعمال مخابرَ وآلات حسابية، وَجَدَ أن (الفتحة) تردُ بنسبة ٤٤٪ من ألفاظ القرآن الكريم، تليها في التردد الكسرة بنسبةِ ١٨٪، ثم ألف المدِّ بنسبة ١٥٪، ثم الضمة بنسبة ١٤٪، وفي آخر الجدول تأتي الواو ٥٪، ثم الياء ٤٪،[1] مما يثبت أن لحركات الحروف دلالةً ظاهرةً بيّنة على معانيها، تنطلق من صفاتها: كالقوة والضعف، والثقل والقوة، والامتداد والانتشار، والاتِّساع، والجمع والضمِّ والانخفاض والانبساطِ، والتناسب والتعارض، وعلى هذا ينبغي الانتباه مراعاةً لوضع اللغةِ، فيضع كل حركةٍ لما يناسبها من المعاني.

وكُلّ هذه الدراسات اتخذت العلوم البحتة أساساً جوهرياً للتحليل، يمكن تسميتها مرحلة (علمية النص)، إلاّ أن الذي عكفنا عليه في بحثنا هو رصدُ الجوانب الدلالية والجمالية الناتجة عن التوظيف الإبداعي لمفهوم الحركات في النص القرآني، بعيداً عن تأثيرات العلوم الإحصائية ذات القوالب الجافة الجامدة، وتلمّسنا دقائق البيان، وروعة البديع التي آتت أُكلها في الكشف عن القيم الجمالية والمفارقات الحسّية وانحرافاتهِ الإيقاعية في أعظم نص عرفته البشرية.

١- دلالة توالي حركة (الضَّم):

يوظف القرآن الكريم توالي حركة (الضّم) توظيفاً دلالياً وصوتياً في صياغة لفظية محكمة، وتقانات فنية تستثير إعجاب المتلقي؛ لما تحمله من إبداع يتمثل في الأسلوب المعجز الذي يمثل أعلى درجات الفصاحة والبيان.

(١) ينظر: استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم: ١١١٧-١١٢١.

ومن تتبع مواضع حركة (الضّم) في القرآن الكريم، نتلمس ظاهرة التوالي في سياقاتٍ متعددة، وفي تنوعٍ عددي إعجازي، يستدعي تنسيقاً وانسجاماً صوتياً، يأتي حصيلةً للتعاقب الحركي الدلالي، حيث رصدنا أمثلةً نوجزها بالآتي:

ت	السورة	رقم الآية	الآيـة	التوصيف الحركي
١-	البقرة	٦٧	{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}	توالي ثلاث ضمات
٢-	البقرة	١٦٩	{إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ}	توالي ثلاث ضمات
٣-	النساء	١١	{وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ}	توالي ثلاث ضمات
٤-	النساء	١١	{فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}	توالي ثلاث ضمات
٥-	النساء	١٢	{فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ}	توالي ثلاث ضمات
٦-	النساء	١٢	{فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ}	توالي ثلاث ضمات
٧-	الانعام	٦١	{تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ}	توالي أربع ضمات
٨-	التوبة	٦١	{وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ}	توالي ثلاث ضمات
٩-	التوبة	٧٠	{أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ}	توالي ست ضمات في قراءة
١٠-	هود	٨١	{قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ}	توالي ثلاث ضمات
١١-	الرعد	٣٥	{أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا}	توالي ثلاث ضمات
١٢-	الانبياء	٤٤	{حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ}	توالي ثلاث ضمات
١٣-	فصلت	٢٢	{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ}	توالي أربع ضمات مع إشباع الواو
١٤-	الشعراء	١٣٧	{إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ}	توالي ثلاث ضمات

١٥-	القصص	٤٥	{فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ}	توالي ثلاث ضمات
١٦-	الروم	٩	{وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}	توالي أربع ضمات
١٧-	فاطر	٢٥	{جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}	توالي أربع ضمات
١٨-	يس	٦٥	{وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ}	توالي ثلاث ضمات
١٩-	الزمر	٧١	{أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}	توالي ثلاث ضمات
٢٠-	غافر	٢٢	{كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}	توالي أربع ضمات
٢١-	غافر	٥٠	{أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}	توالي أربع ضمات
٢٢-	غافر	٨٣	{فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}	توالي أربع ضمات
٢٣-	الواقعة	٥٦	{هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ}	توالي أربع ضمات
٢٤-	التغابن	٦	{كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}	توالي أربع ضمات
٢٥-	الملك	٢٠	{يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ}	توالي ثلاث ضمات
٢٦-	الملك	٢١	{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ}	توالي ثلاث ضمات
٢٧-	النازعات	١٠	{يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ}	توالي الضمات مع إشباع الواو

إنَّ ظاهرة توالي (الضمات) وتتابعها بتوصيفها الثلاثي والرباعي والخماسي والسداسي، جاء متناسباً مع السياق القرآني الذي يقتضي دلالة حركة (الضمّ) التي تضمّ لها الشفتان وتتدور، فلو تأملنا ما جاء في سورة التوبة مثالاً، في قوله تعالى: **{وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [التوبة: ٦١].

تجمهرت في الآية الكريمة وبشكلٍ لافتٍ للنظر حركةُ الضمة بنوعيها القصيرة ثلاثٍ وعشرين مرة، والطويلة – التي هي ضعف القصيرة في مداها النطقي (٦) ست مرات، ليكون مجموع الضمّات النهائي (٣٥) خمساً وثلاثين، ومن أبرز الدلالات الإيحائية لتوالي الضم في الآية:

١- مناسبة صوت (الضمّ) الثقيل الحاد، وهو مصوَّت مدور مغلق رزين عالٍ، للتعبير عن خُلق الرسول (r)، وشخصيتهِ الرزنة، وعلو ورفعةِ شأنهِ، وترفعهِ عن ادعاءات المنافقين، وقوتهِ وثباتهِ إزاء مكامن الشرّ التي تحاول الانتقاص منه (r).

٢- الضمّة أسرعُ نطقاً من نظيرتيها، وأقصر مدىً؛ لذلك عَمَد التعبير القرآني إلى إيثارها توافقاً مع سرعة الردِّ الحاسم للمتطاولين وقطع ألسنتهم.

٣- تتسم الضمّة بالجهرية والوضوح السمعي، انسجاماً مع مقام الرد الإلهي الصادح بالحقِّ، والمثبت لأوصاف نبيه الكريم.

٤- حدِّيةُ الضمّة تولد إيقاعاً موسيقياً عالياً، تكشف عنه الدلالة السياقية في شهادة الله تعالى لحبيبه ﷺ بالخير والإيمان والرحمة المهداة للبشرية جمعاء.

وفي قوله تعالى: {**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**}[إبراهيم: ١١] فالواضح للعيان توالي أربع ضمّات في لفظةِ (رُسُلُهُم)، إلاّ أن التتبع الدقيق لقراءاتِ بعض القراء، يرشدنا إلى توالي (سبع) ضمات متتالية ابتداءً من (الهاء) في لهم، حتى (الميم) في (رُسُلُهُمُ) على قراءةِ ابن كثير، وقالون، بخلاف حيث ((يضمان الميم التي للجمع ويصلانها بواوٍ، نحو (عليهُمُو – ءانذرتهم أم لم تُنذرهمو، خلافاً للباقين، ولا خلاف بين الجماعة أن الميم في جميع ساكنة في الوقف))[1]، وهنا تبعث التشكيلة الحركية المتوالية (للضم) دلالات

(١) التيسير في القراءات السبع: ١٩.

إيحائية تستقطب التأمل بتسلسلها الدقيق المنتظم، والمتعالق مع المحمولات التعبيرية؛ لترفد بنية (رُسُلُهُم) بطاقات تتوافق مع الوضوح السمعي العالي لمقام الرسل وعزيمتهم على تحمل ثقل الرسالة السماوية المنوطة بهم، وقوة حجتهم ((وتحاكي برزانتها رزانة شخصية الرسل الكرام، وتصاقب الجهد العظيم الذي يبذلونه في سبيل الدعوة))[1].

٢- دلالة توالي حَرَكَةُ (الفَتْح):

ثمة علاقة وطيدة بين التشكيل الحركي للمفردات في القرآن الكريم، وبين دلالاتها الإيحائية، حيث تُلقي البنية الصوتية بظلالها من المعاني على السياق والجو العام للسورة بأكملها، فلو تأملنا قوله تعالى في سورة الضحى: **{وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى}** [الضحى: ٧- ٨] نلحظُ في التشكيل الصوتي للنص الكريم هيمنة الفتحة وهي مصوّتٌ قصير واسع منتشر[2]، تتسم بالخفّة والسرعة في النطق، ويُسهم في توليد إيقاع سريعٍ نابضٍ بحياةٍ جديدةٍ وأملٍ، حيث يبقى الفمُ مفتوحاً بشكلٍ واسعٍ مستمر، تناسباً مع مضمون الإيجاد وتصوير النعم والتذكير الدائم الواسع بفضل الله تعالى وبالمنهج الذي يصلك بهِ، ويمضي سياقُ السورة الكريمة يذكِّر الرسول (r) وما كان من شأن معه منذ أول الطريق؛ ليستحضر فيض الرحمة والودِّ، بحركةٍ يسيرةٍ خفيفةٍ تدعو إلى الراحةِ والسكون.

وفي دراسةٍ تتبعية، للنصوص القرآنية التي ورد فيها (الفتحُ) حركةً متتاليةً في مفرداتٍ ومواضع متعددة، وجدنا أن الهيئة النطقية والسمات الصوتية لهذه الحركة تُحاكي طبيعتها ومكنونها الدلالي، وتنسجمُ مع سياق الآيات والسور الواردة فيها حيث تتعانقُ دلالةُ الحركةِ مع حشدها الفني لترسم جانباً من جوانب الإعجاز القرآني، تتجلى فيه دقة البيان

(١) **تجليات الدلالة الإيحائية.**

(٢) **ينظر: دراسة الصوت اللغوي: ١٢٧، علم الأصوات العام: ٨٦.**

في سور قرآنية كاملة، تحتاجُ إلى دراسةٍ مستقلةٍ، لشيوعها ظاهرةً مطّردةً.

ومن الجدير بالذكر أن توالي حركة الفتحة في القرآن الكريم يمنحُ المفردة دلالة الاستقرار؛ وذلك لأن صوتها في نهاية الكلمة يُلفظ بأخفض نبرةٍ، مما يُجردها من كل فعالية[1]؛ إضافة إلى دلالاتها على العمل الإرادي وتتابعهُ، عكس نظيرتيها (الكسرة) الدالة على العمل غير الإرادي، و(الضمة) الدالّة على دوام الشيء وثباتهِ.

وقد رصدَ البحث شواهد موضعية لتوالي الفتحات في سورٍ متعددة منها:

ت	السورة	رقم الآية	الآيــة	التوصيف الحركي
١-	البقرة	١٨٠	{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ}	ست فتحات
٢-	البقرة	١٩٧	{...فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ}	خمس فتحات
٣-	البقرة	٢٣٠	{فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا}	ثلاث فتحات
٤-	آل عمران	٣	{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...}	أربع فتحات
٥-	يوسف	٤	{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً}	سبع فتحات
٦-	الإسراء	٥٩	{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ}	أربع فتحات
٧-	النبأ	١	{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ}	أربع فتحات
٨-	المدّثر	٢٢	{ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ}	ثماني فتحات
٩-	المدثر	٣٠	{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}	خمس فتحات
١٠-	عبس	١	{عَبَسَ وَتَوَلَى}	سبع فتحات

(١) ينظر: اللسان العربي، حول أصول حركات الشكل: ٩١.

١١-	الانفطار	٧	{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}	ست فتحات
١٢-	الأعلى	٢	{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}	خمس فتحات
١٣-	الأعلى	٣	{الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}	خمس فتحات
١٤-	الفجر	١٦	{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ}	ست فتحات
١٥-	لقمان	٢٣	{ وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ }	خمس فتحات
١٦-	الليل	١٦	{الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلى}	خمس فتحات
١٧-	الضحى	٣	{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلى}	أربع فتحات
١٨-	الضحى	٧	{وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى}	ست فتحات
١٩-	الضحى	٨	{وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى}	ست فتحات
٢٠-	العلق	١-٢	{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}	ست فتحات

٣- دلالةُ توالي حَرَكَةُ (الكسرة):

اتفقت الدراسات القديمة والحديثة على أن كُلّ حركة من الحركات القصيرة تمتلك سماتٍ نطقية وطبيعة دلالية تختلف عن الأخرى، وإلى ذلك أشار علم الأصوات عندما وضع معايير ثابتة لوصف حركة (الكسرة)، فعند النطق بها يرتفعُ الجزء الأمامي من اللسان تجاه الغار، فلا يؤدي إلى إعاقةٍ مجرى الهواء، وتكون الشفتان في حالة انفراجٍ وتراجعٍ إلى الخلف[١]، وعلى أساس ذلك جعلوا الحركة الأقوى للفعل الأقوى، والحركة الأضعفَ للفعل الأضعف، ومن خلال التدقيق في ظاهرة توالي الكسرات في القرآن

(١) فصول في علم الأصوات: ٢٥٠.

الكريم، رصدَ البحثُ قلة المواضع التي ترد فيها هذه الظاهرة؛ فالضمّة في الأصل عند أغلب النحويين أثقلُ من الكسرة؛ لكنّا وجدنا ضد ذلك في القرآن الكريم، فورود الضمّات أكثر توالياً من الكسرات؛ مما يجعلها قليلةٌ جداً لا تزيد على ثلاثة، ومن أمثلتها المجمع عليها، قوله تعالى: **{ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ}** [الأعراف: ١٧]، حيث تتآزر الكسرات الثلاث المتوالية على (الهمزة – واللام – والهاء)، لتنهض بمحمولاتٍ دلالية للتعبير عن ((مشهد حي شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولتهِ الدائبة لإغوائهم))[1]، وتشكيكهم في صحة البعث والقيامة، فالطريقُ إلى الله لا يمكن أن يكون حسياً في هذه الوجوه الأربعة التي عدّها بعضُ المفسرين كنايةً عن (الحسنات والسيئات)، مستثنياً (من فوقهم)؛ لأنها مكان نزول الرحمة، اختار الطبري جميع طرق الخيرُ والشر.[2]

وحركة الكسرة تتسم بالانفراج والتراجع والتحرك في جهاتٍ قابلة للاتّساع بلا إعاقة، فقد ناسبت دلالة تحرك إبليس على بني آدم في جميع الجهاتِ، مما يوجب تفويت السعادة الإيمانية الموضوعة في تلك الجوانب، ومثل هذا نلمحهُ في قولهِ تعالى: **{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [التوبة: ٤٠]، فقد تعاضدت الكسرات للنهوضِ بأداء المحتوى الدلالي للآية الكريمة من أوجه عدّة[3]:

١- توافق الهيئة النطقية للكسرات في (لصاحِبِهِ) مع وضعية التبسم.

٢- يشهدُ انتاج الكسرات تراجعاً إلى الخلف عند النطقِ مما يشبه وضعية الابتسام

(١) في ظلال القرآن: مج٣/ ج٨-١١/ ١٢٦٧.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن.
(٣) ينظر: الكشاف: ٢/ ٧١، التحرير والتنوير: ٨/ ٤٨.

العريض المتناسب مع إقبال النبي (r) والتفاتهِ الحاني بوجهٍ باسمٍ منبسطٍ إلى الصديق (t).

٣- الرابطة الجامعة بين الصاحبين ظهرت في التناوب بين الأصوات على التوالي (ص، ا، ح، ب، هـ)، توافقاً مع حقيقة الإخلاص في الأحاسيس المكنونة، والصحبة الحقة والرابطة المقدسة.

٤- تومئ الفتحة الطويلة (الألف) باتسّاع وامتداد نطاق الصحبة.

٥- تآزر الفتحات في لفظة (مَعَنَا)؛ لاستشعار معية الله وتوسيع نطاق الإيمان.

وأمثلة ذلك في القرآن الكريم شاهدة على دقة الاختيار وسعة التعبير بالحركات المتضمنة دلالات إيحائية تعجز البشر عن إدراكها، لا يسعنا التفصيل فيها والإلمام بجوانبها المتعددة؛ لذا نؤكد على ضرورة دراسة الموضوع بشمولية واتِّساع أكبر.

نتائج البحث

١. للحركات دورٌ بارز في اللغة العربية، لا يمكن الاستغناء عنها في إبراز الدلالة والتفريق بين المعاني في حالات الكلام المتعددة.

٢. لا قيمة للحركة بمفردها، ولا دلالة ملموسة؛ إلا بتضافر القرائن.

٣. تنقسم الحركات الإعرابية في اللغة العربية على قسمين: قصيرة (فتحة – كسرة – ضمة)، وطويلة (ألف المدّ – ياء المدّ – واو المدّ).

٤. تحديد عدد الحركات بثلاث يعتمد على جانبها النطقي (كميتها الزمنية) و(وظيفتها الدلالية).

٥. تقتضي كل حركة من الحركات القصيرة نمطاً خاصاً في النطق والخصائص ومجالات الدلالة الملائمة لتشكلها الفيزيائي.

٦. شكّلت الحركات القصيرة المتوالية (من جنس واحد) في القرآن الكريم ظاهرة لغوية دلالية إعجازية، لم تُفرد لها دراسات مستقلة؛ بل إشارات عابرة في تضاعيف الكتب ومتونها.

٧. توالي حركة الفتحة في القرآن الكريم يشكِّل النسبة الأكثر دوراناً، تليها الضمة ثم الكسرة.

٨. دلالة توالي الفتحات في القرآن يوحي في مواضع متعددة إلى الاستقرار والعمل الإرادي والاتِّساع والسرعة والخفة تناسباً مع نطقها.

٩. تنبعث من توالي الضمات في القرآن الكريم دلالات إيحائية دقيقة تشير إلى القوة والوضوح السمعي العالي، إضافةً إلى الحدّة المناسبة للسرعة.

١٠. يوظف القرآن الكريم ظاهرة توالي الكسرات دلالياً في صياغات استثنائية

شكّلت أسلوباً معجزاً بليغاً يمثل أعلى درجات الفصاحة والبيان.

١١. تفرّد النص القرآني بظاهرة توالي أربع وخمس وست متحركات في بنية واحدة ذات معنى، مخالفاً قاعدة كراهة توالي المتحركات في العربية.